الشعر في القصة

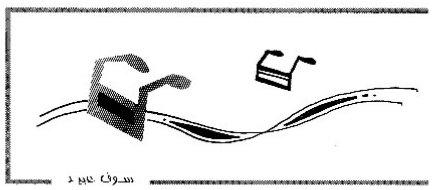

التي أوردها تؤكد إلى حدّ بعيد اقتراب اقاصيص المطوي ـ أحيانا ـ من النصّ الشّعري، فقصّة طريق المعصرة مُقامة على حوار ثنائيّ بين «هي» و «هو» على هذا المنوال :

هي : لا أحبّ هذا الطريق

هو : إنّه يعجبني... إنّه طريق المعصرة

هي : معصرة قلبي

هو : لا يا فلانة(2)

إنّ هذا الحوار الثّنائي بما فيه من تقابل ومـخاتلة وتغنّج يذكّرنا بقصيدة قديمة لوضّاح اليمن يقول منها :

قالت : فإنّ القصر من دُونِنا

قُلتُ : فإنّي فوقـه ظاهر

قالت : فإنّ البحـر من دُونِنا

قُلتُ : فإنّي سابح ماهر

قالت : فحَوْلي إخـوة سبعةٌ

قُلتُ : فإنّي غالبٌ قاهرٌ(3)

وفي سياق آخـر يبدو التّصريح بالشّـعر واضحا لدى محـمد العروسي المطوي عند بعض شخصياته القصصيّة كمثل هذا الحوار ايضا :

ـ لم أكن أحسب أنّ للمرمر إحساسا.. معذرة يا فينوس

ـ أتخلّق الشّعر وانت تمشي ؟

ـ عفوك يا سادتي

ـ انا مسدونة إذا شئت... كم اشتقت إلى قسوة الحامي(4).

المسار
العدد رقم 38_39
1 ديسمبر 1998

تصفح العدد

وفي تعليق على هذه الفـقرة يصـرّح رضوان الكوني أنّه نظمٌ جـيّد(5)، والنّظم من مـجال الشّعـر فالهـاجس الشعـريّ واضـح في كتـابات محـمد العروسي المطوي تلميحا وتصـريحا وكذلك هو واضح لدى ناقده رضوان الكوني الذي يقدّم الكاتب حسن نصر كما يلي :

كاتـبٌ موهوب، ذو أسلوب واقـعيّ جديد، جُـمْلُهُ قصـيرة تعـبّر بعـمق وتختزل كلامـا كثيرًا في صورٍ دقيقـة شفّافة، كثيرًا مـا يختلط لديه الشّعر بالنّثر، وهو ما يجعل قصصه متميّزة(6).

فللشّعـر حضـورٌ جليّ في القصّة الـتونسية وقد سـجّلت بعض القراءات النقدية ذلك كما رأينا.

على قافية الشّعر

في القصّة الأخيرة من المجموعـة القصصية لإبراهيم الدرغوثي «كأسُكَ يا مطر» قصّة امرىء القيس يرحل إلى اسطنبـول راكبًا سـيّارة أجرة ونازلاً ببعض الفنادق الحديثة الفاخرة. وقد عمّد الدرغوثي إلى قصّة وفاء السّـموأل فزاد فـيهـا أن جعل زوجة السـموأل تفـاوض على ذبح العبـد عوض الإبن فيخدع التّاريخ ويحتفظ السموأل بمروءته(7).

ويقدّم إبراهيم الدرغـوثي هذه المجـموعة القـصصية بـمقطع بديع من قصيدة «أنشودة المطر» لبدر شاكر السيّاب :

أتعلمين أيّ حزن يبعث المطر

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضّياع

بلا انتهاء ـ كالدّم المُراق، كالجياع

كالحبّ، كالاطفال، كالموتى، هو المطر ! (8)

وهو يعمد إلى التقديم بالشّعر الشّعبي أيضا في القصّة الأولى قائلا :

يا لَنْدَرا يا غيمْ تتجَلاّشي

ولاَ أنموت وعَلّتي في جاشي(9)

وهو كذلك في القصص الأخرى يُراوح بين الأغاني الشـعبية مرّة، ومرّة أخرى يتجلّى أسلوبُ القصّة لديه حتّى يتمحّض إلى مقاطع شعريّة من ذلك :

تلمسوا هنا

بقلم: سوف عبيد

تلمّسوا هناك
دخل الماءُ والتّرابُ إلى عيونهم
داروا هنا
داروا هناك
ملأ الطّينُ آذانهم
خيطوا ذات اليمين
خيطوا ذات الشّمال
فما وجدوا أثرًا للرّجال(10)

إنّ الميل إلى الشّعر واضح في هذه المجموعة القصصية سواءٌ على مستوى الشخصيات أو على مستوى السّرد أو من خلال تضمين الاغاني والأبيات الشعريّة ممّا حدا بالمُقدم لهذه القصص الأستاذ عمر حفيّظ أن ينساق هو أيضا مع السّيل الشّعري العارم فبيدأ مقدّمته بالشّعر فاتحة :

أنا ريحٌ
للأغصان أن تتعانقَ
أو .....
تتشابكَ
فـــيّ
أنا لا أمّ لي
كنتُ سؤالاً

قبل الفطام... وبعد الكلام...(11)

وقد عمد كذلك الأديب محمّد يحي في قصّته الشيخ مسعود(12) إلى مراوحة الشّعر بالنّثر وذلك عندما تتجوّل في خاطر الشخصيّة كلمات أغنية شعبية منها :

رُمّانك يا عيشة مُـرْ
طُعْمُهُ في فمّي ما لذّه
محروم قلبي تقهر
يا ليت نكسره ونعضه !

وهو كذلك يترنّم ببعض المقاطع عند تناوله قهوة الصّباح قائلا :

قهوة الصّباح، سُودة زنزيّة

تونس

المسار
العدد رقم 38_39
1 ديسمبر 1998

تصفح العدد

حلوه بنينة، ومن صُنع العلجية

فالقصّة إذن تكاد تكون نسيجًا أدبيًا خاصًا لحمتُه نثرٌ وسَداه شعْرٌ بل إنّها قائمةٌ من حيث الأساس على القول الشّعري والقَصْد الغنائيّ أكثر منها مصاغةٌ على الشكل القصصي والغرض السّردي ويظهر هذا النُّزوعُ إلى الشّعر حتّى في الحوار على هذا المنوال :

ـ ما أحلى الكبدة المشوية يا حاج

فردّ صاحب المحلّ وهو يضحك :

ـ امّا قلبك يا شيخ أحلى منها

وزاد في الضّحك فانفلت الشيخ يُداعب الحرفاء العديدين :

ـ الكبدة المشوية ما لذّها كي تكون طريّة(13).

ملامح الشّاعر

إنّ شخصية الشّاعر تظهر من حين لآخر في القصّة التونسيّة، ففي قصّة «خاتمةُ قصيد» لجلول عزونة(14) تتحدّث بكاملها عن شاعر يحاول إتمام قصيده فهي تصف المخاض الذي يكابده الشّاعر وهو في آخر لحظات ولادة نصّه حيث تتوافق التجربة وتنسجم مع القصيد فهو القائل :

القصيد الذي ابتدأته أوشك أن ينتهيَ... ولكنّي عزمت أن لا أُنْهيَهُ وأنا صاح... أُريدُه صادرًا عن أعماقي، أريدهُ صادقا، متحرّرًا من قيود المجتمع وأخلاقه.

فجلول عزونه بهذه القصة يطرح قضيّة حدود التجربة الشعرية وتفاعلاتها الدّاخلية وهو كذلك يُضمّن مقطعًا من القصيدة :

الأفق مضطربٌ غامض
والسّماء وحيدة، تُشْعرُ بمرارة
والثّلج... انقلب لَـبَـنًـا

وفي قصّة لعلياء رحيم بعنوان القناديل المنطفئة(15) كانت الشّخصيّة الأساسية فيها تمثّل هي أيضا شاعرًا لم يتمكّن من بلوغ طموحه الشعري الذي ظلّ سرًا بداخله لكنّ صديقته تعرفُ نبوغه فهي القائلة :

كنت مُعجبةً بتفوّقه في مادة الإنشاء على وجه الخصوص ولطالما امتلأتُ نخوةً لأجله كلّما أطنب أستاذ العربيّة في ابراز فصاحته وبلاغته في

تونس
المسار
العدد رقم 38_39
1 ديسمبر 1998

التعبـير، وكنتُ مزهوّةً بصحبـته أكثر لعلمي أنّني الوحـيدة التي تجرأ على الإطلاع على كتـاباته السريّة فلقد كـان بداخله شاعر رقيق يصـوغ كلامًـا ناعما(16).

وقد صدّرت علياء رحيم قصّة «مساء رمادي» بهذا المقطع الشعريّ كأنّه استهلال للقصّة :

تتسلّل من وحدتها
شجرةٌ نبذتها المواسم
تقف على حافة التمنّـي
كلّما توهجتْ هزيمتها
تنكسر شطرين
نصفًا تهبه للمواجع
وَنصفها غُصة للنّوازع(17).

أما قصة الزيتونة ليوسف عبـد العاطي(18) فهي تبدأ هي أيضا بالشّعر كأنّه مدخل أو افتتاحية :

لستُ إلاّ الذي يشقى بالحبّ كي يبقى
وهل في الحبّ شقاء ؟

وهو يعمد إلي فقـرات القصّة فيفصلُ بينهـا بالخطّ البارز بجمل هي إلى الشـعريّة أقـرب أو أنّه قـد عـمد إلى نصّ شـعـريّ وفصل بينـه بألفقـرات القصصية ؟

وهذه المقاطع الشعريّة هي :

- جسدي كبرياء وروحي شقاء
- من فحيح الرّيح أصنع صمتي
  ومن الصّمت ما سحر
- قلبي واحةٌ وحُبّي هو السّنبلة
- كهدير الموج حُبّي
  وقلبي هو الشّراع
- اللّسان وما ذكر
  والقلب بما عَـمّـرَ

فالمـزاوجة بين الـنّثري والشّـعري واضح في هذه القـصّة وهو قـصدٌ

تونس
المسار
العدد رقم 38_39
1 ديسمبر 1998

أسلوبي من شأنه أن يعدّد درجات الخطاب بالإضـافة أنّه يعطي نفسًا جديدا في كلّ مرّة يعود فيها الكاتب إلى سرد قصّته ولا عجب في ذلك فيوسف عبد العاطي هو أيضا بدأ شاعرًا ولعلّه ما يزال يكتب بعض القصائد من حين إلى آخر.

وفي قصّة «حينما يجمعنا النّـقيض» للأديبة عروسية النالوتي(19) فإنّ المقطع الشعريّ يأتي مولوجا في المـتن السّردي الذي يفضي إليه مباشرة على هذا النّحو :

ألم تفهم أنّه هناك أشيـاء لا تجوز لمن يعيش لمطمح يحمله ؟ فـقد يجوز
أن تزرع في مسلكي الأشواك
يجوز أن تقبض على أيد من قصدير
يجوز أن يلوّث الغدير
يجوز أن تجرحني الأسلاك
يجوز أن يُقتل في حلقي الكلام
أن تُقْبَرَ المطامحُ الخضراء
في الظّلام
يجوز
لمُدّة وضعيّة شرعها القانون\يجوز أن تقهرني
يجوز أن تقهَرَني
مدافع السّجون
مجامرُ الكانون
ففي شرعنا
قد تضعف الأكتاف
قد تكسرُ الأطراف
لكنّ حامل القضيّة العذراء
في الجفون
رغم الأصابع المقطوعة
والألم الململم المكنون
معدنه الدُرّيُّ لا يخون !

فهـذا المقطع بالنّسق الإيقاعي وبالمـعاني الغنائية الواردة فـيه وببنائه

الأسلوبيّ عامّة يمثّل قصيدة يمكن أن تُقرأ في ديوان الشّعر الملتزم ضمن مدوّنة الشعر العربي الحديث .

تسرّب الأشكال

وثمّة قصصٌ ذاتُ أسلوب في الكتابة يعتمد على سرد ذي إيقاع في الجملة يقترب من حدود الشعر مثلَ قصص (كذلك يقتلون الأمل) لصاحبها سمير العيّادي(20) ففي القصّة الأولى منها نقرأ :

أمّي تعرف أنّ أخي يحبّ البحر
وأخي يعرف أنّ البحر رفيق لهوه
ومُعْدقٌ متعته وزهوه
وكذلك :
رؤوس الأمواج تلتفتُ يمينًا وشمالاً
تزمجر رؤوس الأمواج، تنادي
أخي لا يجيب
يسحب البحر رؤوسه إلى وراء... إلى وراء
إلى وراء
لا أثر لأخي بين الحشائش والأسماك
والصّدف
دوّى في حشا البحر هدير الفاجعة
وبكى البحرُ، بكى البحر
ولا يزال يبكي كلّما يتذكّر أخي
البحرُ لا يتذكّر إلاّ عندما يتذكّر أخي(21)

والمقصودُ بالإيقاع في هذا السّياق ما في النّص من ترديد وتكرار ودوران حول المعنى المركزي بما يحيل على التفصيل ولتجميع معنى ومبنى مرّة، ومرّة أخرى بما يتضمّنه من حركات متوازية ،متقابلة ومتقاربة ومتسارعة ومتباعدة ومفاجئة كما يظهر ذلك في هذا النّص للكاتب محمد الهادي بن صالح من «وعد الأخرس والعلاقات المتوتّرة».

كانت له دُريهمات
وكانت له قطعة أرض

تونس

المسار
العدد رقم 38_39
1 ديسمبر 1998

تصفح العدد

وكانت له بقرة
وكانت له عنز
وكانت له دجاجة
وكانت له قربةٌ
وكانت له قُلّة
وكانت له أوان
وكان له حمارٌ
عاد إلى القرية الهادئة(22)

ثمّة إذن تراشح وإفضاء بين القصّة والشّعر ولعلّ مرجع ذلك هشاشة الفوارق بين أجناس الخطاب الإبداعي في بعض الأحيان بالإضافة أنّ الكاتب القصصيّ نراه يستعمل كلّ مجالات الإبلاغ في اللغة ليُنزّل نصّه كأحسن ما يكون، وإذا لاحظنا في السّنوات الأخيرة انتشار ظاهرة القصيدة القصيرة فإنّنا بدائا كذلك نقرأ في القصّة التونسية القصص الوجيزة فهذا الأديب مصطفى الكيلاني ينشر سبع قصص قصيرة جدًا لا تتجاوز إحداها وهي «ليل الأقاصي» الجملتين أو الثّلاث(23)، وهذا الكاتب ساسي حمام هو أيضا يقرأ في ملتقى محمد البشروش بمدينة دار شعبان خمس قصص وجيزة يحسب المستمع إلى بعضها أنّها قصيدة وهي تحت عنوان «داد» :

هبّت نسائم الصباح
فماست أغصان الأشجار
وتطايرت العصافير
هنا... وهناك
بين الأوراق الخضراء اليانعة
فخلتها هي
عصفت الرّياح فكسّرت الأغصان
وتلاعبت بالأوراق
وأثارت غبار الطرقات
وعصفت بالأبواب والنوافذ
فخلتها هي
لمّا هطلت الأمطار غزيرةً

عرفت أنّها
لن تأتي !

فهذه القصص الوجيزة التي نقرأها لمصطفى الكيلاني وساسي حمام وغيرهما إنّما تعتمد على الاقتصاد في المبنى وعلى اللّمح في المعنى وعلى الخاتمة المباغتة تمامًا مثل بعض القصائد القصيرة من حيث الكثافة والومض.

هل نحن أمام هذه الظاهرة التي تداخلَ السّرديُّ بالشّعري فيها مُقبلون على مقولة جديدة في الكتابة تعتمد على إلغاء الحدود الفاصلة بين الأنواع والأشكال في الأدب ؟ غير أنّ التداخل بين الأجناس الأدبية قديمٌ في الأدب العربي وما نصوص بعض المتصوّفة مثل أبي حيّان التوحيدي والنّفري إلاّ مجالٌ واضح لامتزاج النّثر بالشّعر عندهما.

ونحن إذا قرأنا بعض النّصوص الشعريّة الحديثة من الشعر التونسي يتجلّى لنا واضحا النّسيج السّرديّ فيها مثل قصيدة «حفريات في جسد عربيّ» التي يعتمد مختار اللغماني فيها على التضمين الشعريّ والتاريخي ليحيل على الحاضر كقوله :

عربيٌّ وأبو نواس الملعونُ المغبونُ نديمي في أيّام الغربة ندخل كل مساء بارًا شعبيًا نشرب، نشرب، نشرب، حتّى يصبح رأس الديك حمارًا وحشيًا

نتسكّع في ماخور مدينتنا و «تزقّ» علينا الأطيار بباب البحر(24).

وعندما يصف الشاعر محمد البقلوطي الطّيف لبعض الشخصيات فإنّه يبني عناصر المشهد تماما كرسم ملامح الشخصية في القصّة ضمن الإطار :

مَرَّ بي
مُورقا عند باب المساء
عاجلته النّهاياتُ
عانقني... ومشى
كان طيفُهُ حقلَ عنب
كان قلبه عنقود خمر
وتُفّاحةٌ من لَهَبْ

تونس

المسار
العدد رقم 38_39
1 ديسمبر 1998

تصفح العدد

كان كفُّه مدفأةً للفراش
ومروحة للتّعب ! (25)

إنّ النّص البديع يستعمل تقنيات مجالات عديدة للكتابة فتتداخل الأجناس الأدبية فيه بل تتداخل فيه حتّى أصداءُ الفنون الأخرى وخاصّة الرّسم والنّحت والمسرح والسّينما، لكنّ القصد من صاحبه يظلّ محدّدا مهمّا في تصنيفه عند متقبّله لإبرام اتفاق ضمنيّ على قراءته ضمن جنس من أشكال الإبداع.

لكنّنا نحتار عندما نقرأ مثل تلك المقاطع هل هي من السّرد القصصي ؟ أم هي من الإيحاء الشعريّ، ذلك أنّه ثمّة - رغم كل القواعد والاشكال خيطٌ دقيق بين كلّ ضروب أنواع الكتابة أو توجد بوّابة سريّة بين مختلف الأجناس فلا استقرار نهائيّ وثابتٌ لأشكال الأدب... نعم إنّها خاضعة لقوانين : الأجملُ ما فيها أنّ المبدعَ الفحلَ يمكن له أن يخترقها !

سوف عبيد
رادس 22/5/1997

الهوامش :

(1) الكتابة القصصية في تونس - رضوان الكوني - منشورات قصص 1994 - ص 231 و233
(2) نفس المصدر ص 231
(3) الغزل - محمد سامي الدهان - دار المعارف 1981 - ص 64
(4 و5) الكتابة القصصية في تونس - رضوان الكوني منشورات قصص 1994 ص 234
(6) نفس المصدر ص 191
(7) كأسك يا مطر - إبراهيم الدرغوثي - دار سحر للنشر 1997 - ص 96
(8) نفس المصدر - ص 7
(9) نفس المصدر - ص 13
(10) نفس المصدر - ص 40

(11) نفس المصدر ـ ص 9
(12) مجلة قصص عدد 7 ـ 1968 ـ ص 126
(13) نفس المصدر ـ ص 134
(14) مجلة قصص عدد 7 ـ 1968 ـ ص 119
(15) الخيبة تسبق الموت ـ علياء رحيم ـ 1997 ص 105
(16) نفس المصدر ـ ص 132
(17) نفس المصدر ـ ص 53
(18) وبعد ـ يوسف عبد العاطي ـ منشورات قصص 1991 ص 65
(19) البُعد الخامس ـ عروسية النالوتي ـ الدار العربية للكتاب 1975 ص 132
(20) كذلك يقتلون الأمل ـ سمير العيادي ـ الدار التونسية للنشر 1882
(21) نفس المصدر ـ ص 8
(22) وعد الأخرس والعلاقات المتوتّرة ـ محمد الهادي بن صالح ـ الدار العربية للكتاب 1988 ـ ص 42
(23) مجلة الحياة الثقافيج عدد 79 ـ 1996 ـ ص 68
(24) أقسمت على انتصار الشمس ـ مختار اللغماني ـ الدار التونسية للنشر 1981 ـ ص 103
(25) آخر زهرة ثلج ـ محمد البقلوطي ـ منشورات تونس قرطاج ـ 1987 ـ ص 3.

تونس

المسار
العدد رقم 38_39
1 ديسمبر 1998

تصفح العدد

javascript:__doPostBack('ctl00$ContentPlaceHolder1$fvIssueInfo$lbviewall','')